مزاعم التأثيرات الأجنبية على علم الكلام الإسلامي

أ.د/ عبد العزيز سيف النصر

نود أولا وقبل كل شيء أن نقرر أن هناك فارقا بين الإسلام، وبين الفكر الإسلامي. فالإسلام هو دين الله تعالى، المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. ومصدر الإسلام هو الكتاب والسنة. وأما الفكر الإسلامي فهو العمل العقلي للمسلمين في فهم ما جاء في الكتاب والسنة.

ومن ثم فإن الإسلام — لأنه يعتمد على وحي معصوم — لا اختلاف ولا تناقض فيه. وأما الفكر الإسلامي — فيما لا شك فيه — فيمكن أن يقع فيه الاختلاف حسب اجتهادات المجتهدين، ومستوياتهم الفكرية.

ومن الفكر الإسلامي علم الكلام. وهو العلم الذي يختص بقضايا الإيمان.

وقد وصف الشارع هذا الإيمان «الذي هو تصديق وعين أمورا مخصوصة كلفنا التصديق بها بقلوبنا، واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بها بألسنتنا، وهي العقائد التي تقررت في الدين»(١).

وهذا الإيمان يتكون من قواعد ست بينها النبي ﷺ في حديث حين سئل عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»(٢).

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٦٢ ط الرابعة سنة ١٩٨١ دار القلم بيروت.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما

وقد قرر ابن خلدون أن « هـذه هى العقائد الإيمانية المقررة فى علم الـكلام »(١).

والنقاش فى هذه العقائد الإيمانية هو الذى كون علم الـكلام ، كما قال ابن خلدون فى مكان آخر من كتابه «وهذه هى العقائد الإيمانية فى الذات والصفات ، وأمور الحشر ، والنعيم والعذاب والقدر . والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الـكلام»(٢) .

وقد وقع علم الـكلام فى تطوره فى مرحلتين . الأولى وكانت فى ظهور نظام موحد من الاعتقاد مأخوذ من تعاليم القرآن والسنة . والثانية كانت فى ظهور البدع المختلفة .

وقد حـكمت المرحلة الأولى بأناس أتقياء ورعين ، كان جل همهم هو الاقتداء برسول الله ﷺ ، ونشر الدين . وعرف هؤلاء فى الأوساط العامة الإسلامية باسم « السلف » وهذا الاصطلاح ينطبق على صحابة الرسول ﷺ ، ومن أتى بعدهم وهم التابعون(٣) .

وقد أخذ مذهب السلف على أنه هو المذهب المقبول عند جمهور المسلمين ، وأما ما خالف هذا المذهب أو انحرف عنه — قليلا أو كثيرا — فقد عد من البدع والضلالات :

١ — ونحن نبحث فى مسألة التأثيرات الأجنبية على علم الـكلام الإسلامى فإننا نتساءل هل اصطلاح « علم الـكلام » نقل من مصدر أجنبى عن اللغة العربية ؟ وبعبارة أخرى : هل ترجم المسلمون هذا الاصطلاح ونقلوه إلى

(١) المقدمة ص ٤٦٢
(٢) المقدمة ص ٤٣٦
(٣) المقدمة ص ٤٦٣

العربية من أعمال فلسفية دينية فارسية أو هندية ، أو مسيحية يونانية أو لاتينية ؟ أو أنه كان من اختراع المسلمين أنفسهم ؟ .

إننا نجد بعض المستشرقين يلمح إلى أن هناك تأثيرا يونانيا ، إذ يوجد توافق بين اللفظة اليونانية لوجوس « logos » واللفظة العربية « كلام ». وهذا ما ذهب إليه ماك دونالد « Macdoneld » فى مقال « كلام » حيث يستشهد بالتفتازانى على أن لفظة « كلام » قصد بها أولا « الخطاب فى... » ثم أصبحت بعد ذلك — عن طريق التخصيص — تعنى الـكلام فى الأمور الإلهية على الإطلاق(١) .

ونحن نستطيع أن نرد على هذا الزعم وتفنيده ببساطة تامة . لقد ظهر اصطلاح « علم الـكلام » بين المسلمين على وجه طبيعى حين ثار الجدال بين المسلمين حول مسائل العقيدة . ونستطيع أن نجد عند مؤرخى علم الـكلام بعض العبارات التى نفهم منها وجود علم كلام سابق على حركة الترجمة يقول الشهرستانى : « وأما الاختلافات فى الأصول : فحدثت فى أواخر أيام الصحابة بدعة (معبد الجهنى) و(غيلان الدمشقى) و (يونس الأسوارى) فى القول بالقدر ، وإنكار اضافة الخير والشر إلى القدر . ونسج على منوالهم واصل بن عطاء »(٢) .

وواصل ابن عطاء هو مؤسس مدرسة الاعتزال وكان قبل حركة الترجمة . أما ازدهارا لمعتزلة كفرقة عرفت باسم « المتـكلين » وبعد انتشار حركة الترجمة ، فقد كان فى فترة متأخرة ، كما قرر ذلك الشهرستانى فى قوله : « وأما روفق علم الـكلام فابتداؤه من الخلفاء

(١) غرد يه وقنواتى : فلسفة الفكر الدينى بين الإسلام والمسيحية حـ٢ ص ٥٢ ط الأولى بيروت سنة ١٩٦٧
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل حـ١ ص ٣٥ ط الثانية الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

العباسية هارون ، والمأمون ، والمعتصم والوثق ، والمتوكل » (١)

وبالمثل يمكن استنتاج وجود « علم كلام » سابق على وجود المعتزلة وذلك من إشارة لابن خلدون إلى المتكلمين الأوائل الذين أزدهروا قبل نشأة المعتزلة حيث قال : « ثم لما كثرت العلوم والصنائع ، وولع الناس بالتدوين والبحث فى سائر الأنحاء ، وألف المتكلمون فى التنزيه ، حدثت بدعة المعتزلة » (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ابن خلدون يعطينا معلومات ، ليس عن متكلمين سابقين على وجود المعتزلة وقبل حدوث حركة الترجمة ، بل أيضا يبين لنا كيف حدث كلام هؤلاء المتكلمين وما هو ؟ إذ أنه فى فقرن له تعالج الأحوال الدينية بين المسلمين — قبل نشأة المعتزلة — يقرر أن السلف فى محاولتهم شرح قواعد الإيمان ، كانوا يستشهدون بآيات من القرآن ، وأحاديث من السنة . ولما حدثت الخلافات فى الرأى ، وكانت هذه الخلافات تتعلق بتفاصيل القواعد الإيمانية ، وخاصة حول الآيات المتشابهات « دفعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام » (٣) .

وإذن فالنتيجة المستخلصة من كل هذه النصوص هى أن اصطلاح (علم الكلام) ظهر بين المسلمين حين تناقشوا فى مسائل الإيمان وكان ذلك سابقا على حركة الترجمة مما يؤكد أن هذا المصطلح لم يظهر بين المسلمين نتيجة تأثير أجنبى .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٣٧

(٢) المقدمة ص ٤٦٤

(٣) المقدمه ص ٤٦٣

وأيضا فإن الرأى القائل بالتأثير الأجنبى — السابق الإشارة إليه — لا يمكن التسليم به . لأنه لو صح ، لكان هذا الاصطلاح مطبقا على أبحاث الفلاسفة الإسلاميين الذين تناولوا بالبحث أيضا قضايا الإيمان . مع أننا نجد أن اصطلاح (علم الكلام) قد أطلق على نظام خاص من الفكر ، قام بين المسلمين ، قبل الترجمة ، وسابقا على وجود الفلسفة ومؤسيسها . وأصحاب هذا الفن كانوا يسمون متكلمين فى مقابلة نوع آخر من المفكرين الذين ابتدؤوا بالكندى ، وعرفوا باسم (الفلاسفة)

٢ — ونجد ابن خلدون وهو يتحدث عن التنزيهات والتشبيهات بسبب الآيات الموجودة فى القرآن الكريم ، يقرر أنه نتج عن النظر فى هذه الآيات المتقابلة وجود نظريات ثلاث ، دافعت عنها فرق ثلاث .

الفرقة الأولى : وهى فرقة السلف الذين مالوا إلى الآيات التى تصرح بتنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقات . وأما الآيات التى توهم التشبيه ، فقد رأى السلف أنه يجب الإيمان بها كما جاءت دون تأويل أو بحث فى معناها . (١)

وأما الفرقتان الثانية والثالثة : فقد وسمهما ابن خلدون بالابتداع « وشذ لعصرهم — أى السلف — مبتدعة ، اتبعوا ماتشابه من الآيات ، وتوغلوا فى التشبيه (٢) .

وتفرع من هؤلاء المبتدعة مجموعتان :

المجموعة الأولى صرحت بالتشبيه الكامل و « التجسيم الصريح » (٣) .

---

(١) المقدمة ص ٤٦٣

(٢) المقدمة ص ٤٦٣

(٣) المقدمة ص ٤٦٣

والمجموعة الأخرى : حاولت التنسيق والتوفيق بين الآيات التى تصرح بالتنزيه ، والأخرى التى تقتضى التشبيه، وذلك بتأويل آيات التشبيه وقسم من وهذه المجموعة حين تعاملوا مع الآيات التى تعزوا إلى الله تعالى مثل ماللإنسان من أعضاء « كاليد والقدم والوجه » فقد أولوها بأنها تعنى أن الله تعالى جسما ، ولكن ليس مثل الأجسام المعروفة لنا ، وعبارتهم المشهورة هى « جسم لا كالأجسام » (١) .

وقد رفض ابن خلدون هـــذه الطريقة من التوفيق محتجا بأن صيغة « جسم لا كالأجسام » قول متناقض وجمع بين نفى وإثبات (٢) .

ونحن هنا نتساءل : كيف ظهر مثل هذا التعبير « جسم لا كالأجسام» بين المسلمين ، وما هو مصدره ؟

فى الإجابة على هذا السؤال نجد بعض المستشرقين يحاول أن يرجع كل ماظهر بين المسلمين إلى مصدر أجنبى .

وفى حالتنا هـذه ، يحاول ذلك البعض أن يوجد تأثيرا على الفرق الكلامية عن طريق التشابه بـــين قولهم « جسم لا كالأجسام» وبين قول « تيرتوليان » المسيحى : إن الله تعالى غير مادى، وهو وإن كا جسما ، فهو جسم ليس مماثلا لأى جسم آخر (٣) .

ولكننا نبادر فنقول : إنه من الصعوبة قبول مثل هذا الرأى ، لأنه إن كانت هناك تأثيرات مسيحية، فإنها كانت عن طريق المسيحية اليونانية فهى التى

(١) المقدمة ص ٤٦٤

(٢) المقدمة ص ٤٦٤

3) Wolfson ; Philosoruy of The Kalam, p. 11

يمكن القول بأنها كانت معروفة للمسلمين، وخاصة بعد حركة الترجمة ، وليس عن طريق المسيحية اللاتينية التى لم يكن للمسين علم بها « ورأى تيرتوليان هذا لم يكن متداولا فى المسيحية اليونانية (١) .

ولهذا فإن هذا المنهج فى تفسير الآيات الموهمـــة للتشبيه قد قام — بدون شك — بين المسلمين أنفسهم فى محاولة بعضهم التوفيق بين هذه الآيات وبين آيات التنزيه وذلك لأن الآيات الموهمة للتشبيه تعنى حرفيا المماثلة بين الله تعالى ومخلوقاته .

وكما قرر ابن خلدون فقد فسر بعض المتكلمين هذه الآيات التى تقتضى التشبيه والمماثلة بصيغة « جسم لا كالأجسام » .

ونحن نود أن نسترجع فى أذهاننا منهج القياس « التمثيل » كما هو مستخدم فى الفقه ، وكيف كان المسلمون يستعملونه منذ الصدر الأول فى الإسلام ، كما هو واضح من رسالة عمـــر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما « أعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور » .

وقد اقتبس ابن خلدون قول الخليفه عمر فى تعريفه للقياس إذ قال :

« ثم نظرنا فى طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة ، فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منها ، ويناظرون الأمثال بالأمثال ،(٢)

والآن دعونا ندرس الحالة التى استخدم فيها ذلك التصور للمماثلة بين الأشياء فى الفقه لنرى ما إذا كان ذلك سيلقى بأى ضوء على صيغة «جسم لا كالأجسام التى استخدمت فى تأويل الآيات المتضمنة للتشبيه .

1) Philosophy of The Kalam p. 12.

(٢) المقدمة ص ٤٥٣

إننا إذا نظرنا إلى الحالات التى طبق عليها « قياس التمثيل » كما هو مستخدم فى الفقه ، فإننا نجد أن التماثلات التى بنى عليها « قياس التمثيل » إنما هى تماثلات خاصة معينة ، تتعلق ببعض النواحى الخاصة المعينة التى لوحظت فى الأشياء المتماثلة ، والتى هى على الجملة مختلفة .

ويعطينا الفقهاء مثالا على ذلك الاستعمال للتمثيل ، فى الفقه ، فقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنو إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » . [المائدة ٩٠—٩١] .

ومادام القرآن قد نهى عن شرب الخمر ، فقد رأى الفقهاء وجوب أمتداد النهى والحظر حتى يشمل النبيذ من « البلح » . وقد تم لهم ذلك بقياس التمثيل . إذ أن العلة فى تحريم الخمر هى الإسكار ، وهذه العلة بعينها موجودة فى النبيذ فهو حرام أيضا .

والملاحظ هنا أن الخمر والنبيذ أمران مختلفان من وجوه ، ولكنهما متماثلان من وجه ، وهو الإسكار ، الذى هو العلة فى التحريم .

وهكذا فإن « التمثيل » فى الفقه لا يعنى تمام التماثل بين الأشياء ، وإنما يعنى المماثلة فى بعض النواحى الخاصة بين الأشياء ، والتى قد تكون فى جميع النواحى الأخرى غير متماثلة .

وإذا أتينا إلى تلك المجموعة من المتكلمين الأوائل الذين كانوا يعارضون حمل الآيات الموهمة للتشبيه على ظاهرها ومعناها الحرفى ، ومعارضين فى نفس الوقت لفريق المفوضة من السلف القائلين بوجوب عدم تفسير هذه الآيات ، نقول : إذا أتينا إلى ذلك الفريق فإننا نجد أنهم

كانوا يقولون بوجوب تأويل الآيات الموهمة للتشبيه ، والتأويل الذى قدم نفسه إليهم — على وجه طبيعى — هو أن المماثلة المتضمنة فى الآيات الموهمة للتشبيه فى القرآن ، لا تعنى المماثلة الكاملة من جميع الوجوه ، بين الله وخلقه .

وهذه المماثلة غير ممنوعة ، لأن المماثلة الممنوعة فى القرآن — بنص آيات التنزيه — هى المماثلة الكاملة من جميع الوجوه بين الله ومخلوقاته .

ولما كان هذا الفريق من المتكلمين مدربا على منهج القياس « التمثيل » . المستخدم فى الفقه ، فقد طبقوه فى شرحهم لقواعد الإيمان . ولما كانوا يبحثون عن شاهد مؤيد لهم فى تأويلهم للآيات المتضمنة للتشبيه ، فقد وجدوا هذا الشاهد فى منهج « التمثيل » فى الفقه الذى لا يعنى المماثلة من جميع الوجوه ، بل من بعض الوجوه فقط .

وهذه المماثلة غير ممنوعة بالنسبة للآيات الموهمة للتشبيه .

ومن هنا فنحن نفترض أنهم قد سألوا أنفسهم : لماذا لا نطبق هذا التصور عن المماثلة ، على المماثلة الموجودة فى الآيات الموهمة للتشبيه ؟ وقد حاولوا ووجدوا أنه يمكن لهم تطبيق هذا المنهج ، ومن ثم قالوا : إن المماثلة بين الله والكائنات البشرية ، تلك المماثلة المتضمنة فى بعض آيات القرآن ، لا تعنى المماثلة بين الله وخلقه من جميع الوجوه . وبالمثل فإن المماثلة الممنوعة — بين الله وخلقه — والتى نصت عليها آيات التنزية ، إنما هى المماثلة من جميع الوجوه .

وإذن فيمكننا صياغة دليل لهم على ذلك بما يلى : إن المماثلة بين الله وأى من كائناته المخلوقة غير ممنوع ، مادام الكائن المخلوق ليس مثل الله من جميع الوجوه .

ومن ثم قرروا : أن وصف الله تعالى بصفات مثل : اليد ، والقدم ، والوجه . أو مثل : الاستواء ، والنزول ، لا يعنى أن تلك الصفات فى نسبتها إلى الله تعالى ، مماثلة من جميع الوجوه لتلك الصفات فى نسبتها للمخلوقات. لأن وصف الله تعالى بتلك الصفات وكذلك وصف المخلوقات بتلك الصفات إنما هو من بعض الوجوه فقط ، وأما من حيث الوجوه الأخرى فلا توجد مماثلة بينهما .

ونحن نلاحظ أنهم لم يبينوا لنا ، بأى وجه هما — الله ومخلوقاته — غير متماثلين . وإنما اكتفوا ببيان أن المماثلة المتضمنة فى الآيات الموهمة للتشبيه ، لا تعنى مماثلة بين الله ومخلوقاته من جميع الوجوه .

وهكذا نجد أن منهج هذا الفريق من المتكلمين فى تأويل الآيات الموهمة للتشبيه بصيغة «جسم لا كالأجسام» إنما كان على منهج قياس التمثيل المستخدم فى الفقه ، وهو منهج إسلامى أصيل . وبالتالى فإن هذه الصيغة « جسم لا كالأجسام » لم تظهر بين المسلمين تحت تأثير أجنبى على الإطلاق .

والدليل المعزز لهذا الرأى نجده فى فقرة عند ابن حزم تأتى تكملة لنقاشه لاستخدام القياس فى الفقه . إذ أن ابن حزم كظاهرى يعارض استخدام منهج قياس التمثيل فى الفقه الإسلامى .

ولذلك فبعد أن قال مايجب أن يقال ضد استخدام القياس فى الفقه شرع فى الاحتجاج ضد استخدامه فى علم الكلام .

وقد وضع ابن حزم الأشاعرة — نصب عينيه — هدفا للهجوم ، ولذلك فهو يقرر خصائص وجهة نظرهم ، ثم يكر عليها بالنقد .

يقول ابن حزم : « إنهم يدعون أنهم ينكرون التشبيه ، ثم يركبونه

أتم ركوب فيقولون : لما لم يكن الفعال عندنا إلا حياً عالماً قادراً ، وجب أن يكون البارى الفاعل للأشياء حياً عالماً قادراً »(١) .

وقد وجدنا ابن عساكر يقرر أن الأشعرى قال : « إن لله علما لا كالعلوم ، وقدرة لا كالقدر ، وسمعاً لا كالأسماع ، وبصراً لا كالأبصار »(٢) .

ولعل ابن حزم كان قد وضع أمام عينيه مثل هذه الفقرة . ولذلك فبعد أن حكى رأى الأشاعرة نقده وقال : « وهذا نص قياسهم على المخلوقات ، وتشبيه تعالى بهم ولا يجوز عند القائلين بالقياس أن يقاس الشىء إلا على نظيره . وأما أن يقاس الشىء على ما يخالفه من كل وجه وعلى مالا يشبهه فى شىء البتة ، فهو مالا يجوز أصلا عند أحد »(٣) .

وقول ابن حزم « وهذا نص قياسهم » يقصد به أن كلام الأشاعرة هذا ، قائم على قياس التمثيل ، المطبق فى الفقه على أشياء ، بالرغم من أنها غير متماثلة من بعض الوجوه ، فهى متماثلة من وجوه أخرى .

وبين ابن حزم أن قياس التمثيل فى الفقه ، لا يطبق على الأشياء المختلفة من كل وجه ، أو ليس بينها تماثل فى شىء .

ومن كل ما مضى يمكننا أن نخرج بالنتيجة التالية وهى : أن تفسير

---

(١) ابن حزم : الفصل حـ ٢ ص ١٥٨ الناشر مكتبة الخانجى بمصر .

(٢) ابن عساكر : تبيين كذب المفترى ص ١٤٩ مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٣٤٧

(٣) ابن حزم الفصل حـ ٢ ص ١٥٨

الآيات الموهمة للتشبيه بصيغة « جسم لا كالأجسام » كان على منهج « قياس التمثيل » كما هو مستخدم فى الفقه .

ولهذا فإن **كل** ما فعله أولئك المبتدعة — عند ابن خلدون — هو أنهم تبنوا منهج « قياس التمثيل » — وهو منهج إسلامى أصيل — الذى كان مستعملا عند معاصريهم ، فيما يخص مسائل الفقه ، وطبقوه على معضلة الآيات الموهمه للتشبيه .

ونود الآن أن نتناول مزاعم التأثيرات الأجنبية على علم الكلام الإسلامى عند أصحاب الديانات والمذاهب الفلسفية المختلفة ، سواء أوردت هذه المزاعم عند مؤرخى علم الكلام الإسلامى أو عند المستشرقين الذين يحاولون أن يردوا كل فكر إسلامى إلى مصدر أجنبى .

المسيحية

فى تاريخهما لعلم الكلام يشير الشهرستانى وابن خلدون إلى تأثيرات أجنبية مختلفة على هذا العلم .

ولكنهما — على وجه العموم — لا يذكران تأثيراً مسيحياً على نشأة علم الكلام وتطوره . هذا بالرغم من أن الشهرستانى يذكر تأثيرا مسيحيا على اثنين من المتكلمين وهما الفضل الحدثى وأحمد بن خابط فقد كانا يزعمان أن للخلق خالقين أحدهما قديم ، وهو البارى تعالى ، والثانى محدث وهو المسيح عليه السلام ، لقوله تعالى « إذ تخلق من الطين كهيئة الطير »(١) .

وقد ذكر الشهرستانى أن من بدعهما « إثبات حكم من أحكام الإلهية

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٦١

فى المسيح عليه السلام موافقة للنصارى على اعتقادهم ، أن المسيح هو الذى يحاسب الخلق »(١) .

وكذلك أشار ابن خلدون بطريق غير مباشر إلى نوع من التأثير المسيحى ، وذلك حين حاول أن يشرح أسباب ترجمة العلوم اليونانية — متضمنة الفلسفة — إلى اللغة العربية ، فقال فى أحد الأسباب : « تشوقوا إلى الاطلاع على العلوم الحكمية ، بما سمعوا من الأساقفة والأقسة المعاهدين بعض ذكرمنها ، وبما تسموا إليه أفكار الإنسان فيها »(٢) .

ونجد بعض الغربيين الدارسين للعلوم الإسلامية ، يحاول أن يوجد تأثيراً مسيحياً على علم الكلام الإسلامى ككل . ولكن آخرين منهم ينفون هذا الزعم .

فهذا مابيو (Mapilleau) بعد أن يقتبس عبارة لابن ميمون كمثال على التأثير المسيحى على علم الكلام الإسلامى يقول ما ترجمته « وهذا الإثبات عجيب ، وليس فيه — شىء من العمق »(٣) .

وكذلك فإن شرينر (Shreiner) يقرر أن التأثير المسيحى إنما يوجد فقط عند المعتزلة الأوائل مثل واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والأشاعرة(٤) .

ومن يتحدث من هؤلاء الكتاب الغربيين عن تأثير مسيحى ، فهو لا يقصد بذلك تأثيراً مسيحياً على محاورات المتكلمين (وطرق جدالهم) ضد الفلاسفة ، أو ضد بعضهم البعض ، ولكنه يقصد تأثيراً مسيحيا على تشكيل عقائد معينة ، أصبحت بالتالى من مواضيع الخلاف بين المتكلمين .

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٦١
(٢) المقدمة ص ٤٨٠
3) Philosophy of The kalam. p 59
4) Philosophy of The Kalam. p 59

وعلى سبيل المثال فقد قال دى بور : « لا شك أن مذاهب المتكلمين الاعتقادية تأثرت بعوامل نصرانية أبلغ التأثير ، فتأثرت العقائد الإسلامية فى تكونها ، بمذاهب الملكانية واليعاقبة فى دمشق ، كما تأثرت البصرة وبغداد بالمذاهب النسطورية والغنوصية » (١) .

ودى بور — فى كلامه السابق — لم يذكر مثالا واحدا على ذلك التأثير ، ومن ثم فقد علق عليه الدكتور أبو ريدة قائلا : « وإذا كانت هناك آراء نصرانية فهى آراء النصارى الذين دخلوا فى الإسلام ، وليست منه فى شىء ، لأن العقيدة الإسلامية ، تخالف العقيدة النصرانية ، خصوصا كما وضعتها الكنيسة ، مخالفة صريحة واضحة » (٢) .

وقد بنى دى بور رأيه فى هذا التأثير المسيحى على علم الكلام ، على أساس من تلقى بعض المسلمين العلم عن أساتذة مسيحيين ، وعلى أساس التشابه بين الإثنين فى بعض الآراء فيقول : « إننا لا نخطىء الصواب إذا قلنا : إن إختلاط المسلمين بالنصارى ، وتلقيهم العلم عنهم فى المدارس كان له عظيم الأثر . . . وكان الناس يأخذون عن أساتذتهم شفاها ، أكثر مما يتعلمون من الكتب .

ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى فى الإسلام وبين العقائد النصرانية شبها قويا ، لا يستطيع أحد أن ينكر أن بينهما اتصالا مباشرا ، وأول مسألة كثر حولها الجدل بين علماء المسلمين هى مسألة الاختيار وكان النصارى الشرقيون يكادون جميعا يقولون بالاختيار .

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٩٣ تحقيق د / محمد عبد الهادى أبو ريدة ط الرابعة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) نفس المرجع هامش ص ٩٣ .

ولعل مسألة الإرادة لم تبحث من كل وجوهها ، فى زمن من الأزمان ، ولا فى بلد من البلاد ، مثل ما بحثها علماء النصارى فى الشرق أيام الفتح الإسلامى » (١) .

ثم يضيف قائلا : « على أن طائفة من المسلمين الأوائل ، الذين قالوا بالاختيار كان لهم أساتذة نصارى » (٢) .

ورأى دى بور هذا خطأ . أولا ، لأنه مبنى على محض التشابه بين الآراء فى علم الكلام ، وعند المسيحيين ، وهذا التشابه موجود فى كل بلاد العالم ، بين المذاهب المختلفة .

وثانيا : فإن مسألة القدر قد نوقشت فى وقت مبكر فى عهد النبى ﷺ فى المدينة وليس فى الشام ، وأخيرا فإذا كان هناك تأثير فى نشأة القدرية والجبرية بين المسلمين ، فأولى به أن يرجع إلى القرآن نفسه ، فى محاولة كل فريق منهما التوفيق بين النصوص التى يراها متعارضة .

وبينما نجد مستشرقا مثل تريتون (Trittom) يقرر أن التأثير المسيحى قد عجل من نمو مسألة حرية الإرادة فى علم الكلام بين المسلمين ، فإن مستشرقا آخر وهو وات (Wett) ينكر أى تأثير مسيحى فى ذلك الأمر ، ويجعل ذلك راجعا إلى آيات القرآن الكريم (٣) .

وفيما يتعلق بالصفات ، فإننا نرى مستشرقا آخر هو ماكدونالد يقرر أنه لا يمكن إثبات أصل مسيحى لإنكار المعتزلة للصفات ، لأن أصل إنكار الصفات مبهم وغامض ، بالرغم من المناقشات ، ذات التوجيه مع اللاهوتيين اليونانيين » (٤) .

---

3) Matt : Fraa Will. p. 19

4) Mecdoneld : Davalopmant. of Mnsjim Thaology. p. 131

وكذلك نرى مستشرقا آخر هو سويتمان (Sweetmen) قد جمع كل مايتعلق بالصفات — خارج الإسلام — ليبين أنه لا احتكار لأحد مسيحى أو مسلم أو غيرهما فى هـــذا الموضوع ، وأن المدارس الفكرية المختلفة ، يمكن أن توجد فى أتباع كل من الدينين (١) .

وأما ما يتعلق بمسألة قدم القرآن أو حدوثه ، فإن ما كدونالد حين يتحدث عن خلق القرآن يقول ما ترجمته : « تستطيع أن لا تجد صعوبة فى إدراك أنها — بكل وضوح — أخذت من اللوجوس (logos) المسيحى ، وأن الكنيسة اليونانية — ربما من خلال يوحنا الدمشقى — قد لعبت دورا فى تشكيل هذا الاعتقاد .

ولذلك فإنه يتفق مع اللوجوس السماوى غير المخوق فى حضن الآب ، تكون كلمة الله غير المخلوقة (الأزلية) ويتفق مع هذا الإعلان الأرضى للمسيح ، القرآن كلمة الله التى نقرؤها ونتلوها » (٢) .

ونرى مستشرقا آخر وهـــو « بيكر » يحاول أن يظهر أن المشكلة بأكملها سواء أكان القرآن مخلوقا أو غير مخلوق قد أخذت عن المسيحية وذلك عن طريق المناظرات التى ذكر يوحنا الدمشقى أنها وقعت بين مسلم ومسيحى .

ولكن مستشرقا آخر وهو « جيلوام » ينكر أن عقيدة قدم القرآن قد أخذت من يوحنا الدمشقى ، على أساس أنه وجد قبل يوحنا الدمشقى ، القول بأن القرآن محدث ، وأنه وقع الإنكار على قول من قال بقدم القرآن (٣) .

---

1) Swaatmen : 151 Am And Christien Thology. P. 78.

2) Mecdoneld : Davalopmant of Mnslim Thaolgy. p. 78

3) Guileuma : Fraa Will Aud Praistion, p. 49

ونرى مستشرقا آخر وهو « وينسنك » « Wansinck » فى شرحه لعقيدة أهل السنة فى قدم القرآن ، يقرر أنها مأخوذة من التصور الشرقى القديم ، لما قبل الوجود على الأرض ، ويذكر فى هذا على الخصوص ، الوجود السابق للتوراة فى اليهودية ، والوجود السابق الأزلى للوجوس « Logos » فى المسيحية ، وعند شرحه لإنكار المعتزلة قدم القرآن ، فهو يقرر أن ذلك كان نتيجة لعقيدتهم أن الله تعالى وحده هو الأزلى (١) .

وكذلك قرر « سويتمان » « Swaatmen » أن عقيدة أهل السنة فى قدم القرآن ، أخذت من المسيحية فى القول بقدم اللوجوس ، وأن إنكار المعتزلة انما كان راجعا إلى رد الفعل ضد المسيحية (٢) .

ونحن نرى أن الزعم بالتأثير المسيحى فى مسألة قدم القرآن أو حدوثه لا يمكن إثباته بدليل يقينى ، بل فوق ذلك فإنا نرى أن المسألة كلها قد أثيرت بين المسلمين حتى فى الصدر الأول حين كان التأثير يكاد يكون منعدما .

فقد أخرج الشيخ نصر المقدس فى « الحجة » عن أبى هريرة قال : « كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاءه رجل يسأله عن القرآن أمخلوق أو غير مخلوق ؟ فقال على : هذه كلمة وسيكون لها ثمرة ، ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه » (٣) .

---

(٣) السيوطى : صون المنطق والكلام ص ١٨ ط الأولى مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٤٧

1) Wansink : Muslim Craed. p. 77 78

2) swaatmen : Tslem And Christien Thaology. 119

اليهودية

وأما مسألة التأثير اليهودى على علم الكلام الإسلامى، فيرى بعض مؤرخى الفرق أن هذا التأثير كان على بعض المشاكل والمعضلات التى أثيرت بين المتكلمين مثل: التشبيه والتنزيه، وقدم القرآن وحدوثه، والجبر والاختيار.

والملاحظ أن الغالب على مؤرخى الفرق أنهم يتهمون خصومهم بالأخذ عن مصدر أجنبى والاتهامات متبادلة بين الفرق المختلفة. فالإسفرائينى يقرر أن التشبيه الموجود عند بعض فرق المتكلمين مثل الرافضة وغيرهم قد أتى من اليهود(١).

والشهرستانى يتحدث عن تشبيهات بعض الفرق الكلامية فيقول: «وأكثرها مقتبسة من اليهود، فإن التشبيه فيهم طباع»(٢) «ويقول فى مكان آخر: «ولقد كان التشبيه صرفا خالصا فى اليهود، لا فى كلهم، بل فى القرائين منهم»(٣) دون أن يضيف أن قول المشبهة كان مأخوذا منهم، وفى مكان آخر بعد تقرير أن اليهود كانوا مشبهة فإنه يقول: «فالربانيون منهم كالمعتزلة فينا، والقراءون كالمجبرة والمشبهة»(٤).

وفيما يتعلق بمسألة قدم القرآن أوحدوثه، نجد أن أول من عرف بالقول بخلق القرآن، الجعد بن درهم بدمشق، وكان جهم بن صفوان أخذ ذلك

---

(١) الإسفرائينى: التبصير فى الدين ص ١١٣ ط الأنوار سنة ١٩٤٠
(٢) الشهرستانى: الملل والنحل جـ١ ص٩٧
(٣) الشهرستانى: الملل والنحل جـ١ ص٨٤
(٤) الشهرستانى: الملل والنحل جـ١ ص١٩٣

القول من الجعد»(١). ونرى ابن تيمية يرجع هذه المقالة إلى مصدر يهودى وغيره فيقول: «أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين، وضلال الصابئين ... وأول ما ظهرت هذه المقالة من جعد من درهم، وأخذها منه الجهم بن صفوان وأظهرها، فتنسب مقالة الجهمية إليه. والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم اليهودى، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودى الساحر، الذى سحر النبى ﷺ»(٢).

وإذن فابن تيمية يرى أن لبيد بن أعصم اليهودى هو المصدر الذى تسللت منه عقيدة خلق القرآن على بعض الفرق الكلامية فى الإسلام.

وفيما يتعلق بمسألة الجبر والاختيار فقد رأينا قول الشهرستانى: «الربانيون منهم كالمعتزلة فينا، والقراءون كالمجبرة»، وهذه العبارة لا تذكر تأثيرا يهوديا فى هذه المسألة. ولكن الإسفرائينى يقرر أن القدريين الذين ظهروا فى بلاد الإسلام أخذوا عقيدتهم هذه من اليهود(٣).

ونحن نلاحظ أن الباحثين يختلفون اختلافا كبيرا حول تحديد المصدر الأجنبى للمسألة التى يناقشونها، بالإضافة إلى أنهم لا يقدمون الدليل الكافى والمقنع على صحة مزاعمهم:

---

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفترى ص ١٢
(٢) ابن تيمية: الحموية الكبرى: مجموعة الرسائل الكبرى جـ١ ص ٤٣٥ ط صبيح
(٣) الإسفرائينى: التبصير فى الدين ص١٣٣

الفلسفة اليونانية

توجد إشارات عديدة ، سواء من المستشرقين أو المؤرخين للفرق الكلامية بين المسلمين ، وكلها تشير إلى تأثيرات للفلسفة اليونانية على العديد من رجال الفرق الكلامية الإسلامية ، يقول دى بور عن أبى الهذيل : « وهو أول المفكرين الذين أفسحوا للفلسفة مجال التأثير فى مذاهبهم الكلامية(١)

والمصادر العربيه المختلفه تشير إلى أن هذا التأثير الفلسفى اليونانى بدأ مع ترجمة الكتب الفلسفية اليونانية إلى العربية . وتذكر هـذه المصادر أصولا فلسفية لآراء كلامية ، فمثلا : القول بالجزء الذى لا يتجزء أو الجوهر الفرد ، نجد من يرجعه إلى الفلسفة الطبيعية عند اليونان القدماء . يقول ابن حزم : « وذهب قوم من المتكلمين إلى إثبات شىء سموه جوهرا ، ليس جسما ولا عرضا ، وقد ينسب هذا القول إلى بعض الأوائل(٢) » .

وكذلك نجد البغدادى قد أرجع قول النظام فى بطلان الجوهر الفرد إلى فلاسفة يونانيين أيضا فقال : « فأخذ . . . . عن ملحدة الفلاسفة قوله ببطال الجزء الذى لا يتجزأ »(٣) . وكذلك عزا ابن حزم هذا القول إلى النظام والفلاسفة القدماء فقال : « وذهب النظام وكل من يحسن القول من الأوائل إلى أنه لا جزء وإن دق إلا وهو يحتمل التجزء أبدا بلا نهاية ، وأنه ليس فى العالم جزء لا يتجزأ)(٤) .

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٠٦

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل جـ ١ ص ٦٩

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١١٣ ط صبيح بمصر .

(٤) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل جـ ٥ ص ٩٢

وبالمثل أيضا ، نجد أن نظرية الكمون ، التى ارتبطت باسم النظام — بين المتكلمين — قد أرجعها بعض مؤرخى الفرق إلى آراء فى الفلسفة اليونانية ، يقول الأشعرى : « قال كثير من الملحدين : إن الألوان والطعوم والأراييح كامنة فى الأرض والماء والهـواء »(١) . كما عزا الشهرستانى هذه المقالة إلى فلاسفة عديدين « وإنما أخذ هذه المقالة من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة ، وأكثر ميله — أبدا — إلى تقرير مذاهب الطبيعيين منهم دون الإلهيين »(٢) . ولعل الشهرستانى يقصد من هؤلاء الفلاسفة « أنكساغوراس » إذ « هو أول من قال بالكمون والظهور »(٣) .

ويجد الشهرستانى أيضا تأثيرات فلسفية على قول أبى الهذيل فى الصفات فيقول : « أن البارى عالم بعلم ، وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حى بحياة وحياته ذاته . وإنما اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة ، الذين اعتقدوا أن ذاته وحدة لا كثرة فيها بوجه »(٤) .

وكذلك وجد الشهرستانى تأثيرا فلسفيا على تقييد النظام ارادة الله تعالى حيث قال : « إنما يقدر على فعل ما يعلم فيه صلاحا بعباده ولا يقدر على أن يفعل بعباده فى الدنيا ماليس فيه صلاحهم ... وإنما أخذ هذه المقالة من قدماء الفلاسفة »(٥) .

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ٢ ص ٢٥ ط النهضه المصرية سنة ١٩٦٩

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٥٨

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ٢ ص ٦٩

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٥٣

(٥) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٥٦ — ٥٧

وأخيراً يجد الشهرستانى تأثيراً فلسفياً على قول معمر فى الروح بأنه « مدبر للجسد ، وعلاقته مع البدن علاقة التدبير والتصرف ، وإنما أخذ هذا القول من الفلاسفة »(١) .

وقد وصفه الشهرستانى على وجه العموم بأنه كان « يميل إلى الفلاسفة »(٢) .

الديانة الفارسية

وعن التأثير الفارسى على علم الكلام الإسلامى نلاحظ أن مؤرخى الفرق يحدثوننا عن تأثيرات فارسية على بعض رجال الفرق الكلامية ، فيحدثنا البغدادى عن النظام وأنه « كان فى زمان شبابه قد عاشر قوماً من الثنوية »(٣) .

ونجد آراء ثلاثة للنظام يعزوها البغدادى إلى تأثير أولئك الثنوية ، ونجده فى رأى رابع يشك هل هذا راجع إلى تأثير ثنوى أو تأثير طبيعى « وأخذ من الثنوية قوله بأن فاعل العدل لايقدر على فعل الجور والكذب »(٤) .

« وقوله إن الروح جنس واحد، وأفعاله جنس واحد ، وإنما أخذ هذا القول من الثنوية »(٥)، ودعواه أن الحيوان كله جنس واحد ... وزعم أن

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ١ ص٦٦
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ١ ص٦٧
(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١١٣
(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١١٣
(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص١١٩

فى الحقيقة عند المؤلفين المسلمين ، على مجرد التشابه بين المذهبين من حيث الإسم »(١) ، ومن ثم يحاول أن يبين أن «مذهب الجزء متأثر بمؤثرات هندية »(٢) .

وكما أفترض مابيو (Mepilleau) فى كتابه عن تاريخ الفلسفة الذرية أن مذهب المتكلمين فى الجوهر الفرد يرجع إلى أصل هندى، وأول ما اتجه نظره إلى مذهب «الوايشيشيكا »(٣) الهندى ، فقد حاول بينيس (pinas) أن يبين « وجود الشبه بين مذاهب الكلام ومذاهب الوايشيشيكا »(٤) ، وقد لاحظ هورتن أن عند الإسلاميين قولين يدلان فى رأيه على تأثير مذهب «الوايشيشيكا» فى علم الكلام الإسلامى « وأولها القول بأن المعدوم شىء »(٥) ، وإما القول الآخر الذى يرده هورتن إلى مذاهب الهنود فهو قول معمر فى المعانى ... يقارن بهذا مذهب الوايشيشكا فى الحلول »(٦) .

---

(١) بينيس : مذهب الذرة عند المسلمين : ترجمة د / محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٩٤ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٦ م .
(٢) مذهب الذرة عند المسلمين ص٩٩
(٣) مذهب الذرة عند المسلمين ص ٩٩ هامش .
(٤) مذهب الذرة عند المسلمين ص ١١٠
(٥) مذهب الذرة عند المسلمين ص١١٤
(٦) مذهب الذرة عند المسلمين ص١١٦

الجنس الواحد لا يكون منه عملان مختلفان ، كما لا يكون من النار تسخين وتبريد ، ولا من الثلج تسخين وتبريد ... فهو إما ثنوى أو طبيعى »(١).

ويذكر البغدادى أيضاً أن النظام كتب كتابا عن الثنوية ، وأنه نقد فى هذا الكتاب آراء معينة للمانوية ، ومن عجائب النظام فى هذه المسألة أنه صنف كتابا على الثنوية ، وتعجب فيه من قول المانوية بأن النور يأمر أشكاله المختلفة بالظلمة بفعل الخير ، وهى لا تقدر على الشر ، ولا يصح منها فعل الشرور »(٢) .

الديانة الهنـــدية

وأخيراً فنحن لا نجد عند من أرخ لعلم الكلام فى الإسلام حديثا عن تأثير هندى على علم الكلام ولا على المتكلمين إلا ما جاء عند البغدادى عن النظام من أنه « كان فى زمان شبابه قد عاشر قوماً من الثنوية وقوماً من السمنية القائلين بتكافؤ الأدلة »(٣) .

ومعنى هذا أن النظـــام كان على دراية بالعقائد الهندية ولم يحدثنا البغدادى عن أى تأثير هندى على آراء النظام .

ونجد أحد الباحثين الغربيين وهو « بينيس » pinas يحاول أن يرجع القول بالجوهر الفرد ، الذى وجد عند المتكلمين ، لا إلى أصل فلسفى يونانى ، وإنما إلى أصل هندى ، فهو يقول : « ومن الواضح أن القول بالتشابه بين مذهب الجوهر الفرد عند المسلمين ، وبين نظيره عند اليونانيين ، ينبنى

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٢٠ — ١٢١
(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١١٧
(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١١٣

تعقيب

إذا كان علينا أن نختم الكلام على التأثيرات الأجنبية على علم الكلام الإسلامى فنقول : إذا صادفتنا عقيـــدة أو حقيقة معينة غير موجودة فى القرآن ، أولا يمكن أن تقوم من تلقاء ذاتها كتفسير لشىء موجود فى القرآن ، فإننا يجب علينا أن نوجه إلى أنفسنا هذا السؤال : ما هو مصدر تلك العقيدة أو الحقيقة ؟

والإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن توجد فى اكتشاف شبيه لتلك العقيدة أو الحقيقة ، فى نظام فكرى آخر ، لأنه ليس معنى أن هناك تشابها فى فكر كلامى إسلامى ، وفكر أجنبى ، أن يكون الأول قد أخذ من الثانى ، أو أنه تقليد له .

حقا إن العقائد والحقائق مثل المرض تماما ناقلة للعدوى . ولا يمكن أن تكون حكراً على أحد ، وتاريخ العقائد والحقائق إنما هو — غالباً — تاريخ للتقليد المنقول بالعدوى بين الناس ، ولكن يجب أن يلاحظ أنه لكى يؤثر نقل عدوى لعقيدة أو حقيقة ، فيجب أن يوجد الإستعداد الطبيعى وقابلية التأثر فى جانب أولئك الذين تنقل إليهم تلك العقيدة أو تلك الحقيقة . ونحن فى حالتنا هذه ، ونحن نبحث مسألة التأثير الأجنبى على علم الكلام الإسلامى ، فإننا يجب أن نسأل أنفسنا دائماً : ماذا عند هذا الفريق بحيث يجعله قابلا للتأثير الأجنبى .

وأيضاً من الملاحظ أن العقائد والحقائق تمتطى ظهر المصطلحات ، وحين يتم نقل عقيدة أو حقيقة من لغة إلى أخرى ، فإنه — فى الغالب — يتم نقل المصطلحات الأساسية للعقيدة أو الحقيقة المنقولة ، إما عن طريق الترجمة أو بأخطاء الترجمة أيضاً ولذلك فإنه فى حالتنا هذه ، وهى التأثير الأجنبى ، فإننا لا نستطيع أن نثبت ذلك التأثير ، إلا إذا برهن عليه برابط لغو

وأخيراً ، فمن الملاحظ أنه إذا ذكر لنا أى تأثير أجنبى على مسألة من مسائل علم الكلام الإسلامى ، فإنه نادراً ما يأتى — مباشرة — عن طريق موثوق به ، وإنما كان يأتى فى الغالب عن طريق العقائد المحرفة ، أو عن طريق البدع والضلالات ، ولذلك فإن أية إشـــارة إلى تأثير أجنبى ، أو أقتباس من مصدر أجنبى ، يجب أن توخذ باحتياط وحذر شديدين .

وبالله التوفيق

ا . د . عبد العزيز سيف النصر